المادة: السيرة النبوية
المحاضرة: غزوة مؤتة
المرحلة: الأولى
الأستاذ المساعد الدكتور رضاب حاتم ياسين

BIOGRAPHY OF THE PROPHET
PROPHET'S (PBUH) FIGHTS
THE FIRST STAGE
ASSISTANT PROFESSOR DR. REDHAB HATEM YASSIN

غزوة مؤتة:

قرر حكام الشام منع دخول المسلمين إلى بلادهم لنشر الدعوة الإسلامية فيها، إذ تصدوا لسرية كعبن بن عمير التي بعثها الرسول ρ إلى ذات أطلاح في شهر ربيع الأول من السنة الثامنة للهجرة للتبشير بالإسلام ودعوة الناس إلى الإيمان به. ولهذا فكر الرسول ρ بإرسال حملة عسكرية للرد على عدوانهم، غير أن بعض المصادر تذكر أن السبب المباشر لإرسال حملة إلى مؤتة من بلاد الشام أن الرسول ρ بعث رسول الله ρ الحارث بن عمير الأزدى، إلى ملك بصرى بكتاب، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقال: أين تريد؟ قال: الشام. قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، أنا رسول رسول الله. فأمر به فأوثق رباطا، ثم قدمه فضرب عنقه صبرا. ولم يقتل لرسول الله ρ رسول غيره، فبلغ رسول الله ρ الخبر فاشتد عليه، وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ومن قتله، فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجرف، وبذلك بدأ الاستعداد لمعركة مؤتة.

لقد تألف جيش المسلمين الذي بعثه الرسول ρ إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة من ثلاثة آلاف مقاتل، وقد جعل الرسول ρ على قيادة هذا الجيش زيد بن حارثة، فإن أصيب في المعركة فسيتولى القيادة بعده جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فتكون القيادة لعبد الله بن رواحة. وخرج رسول الله ρ مودعا للجيش حتى بلغ ثنية الوداع.

وتشير المصادر إلى أن تحرك جيش المسلمين إلى بلاد الشام قد وصلت أعداءهم بمجرد مغادرتهم المدينة، مما مكن هؤلاء الأعداء من الاستعداد للقائهم، فلما وصلوا معان من أرض الشام بلغهم أن هرقل قد نزل مآب، من أرض البلقاء، في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم مل لخم وجذام والقين وبهراء وبلى مائة ألف منهم، وقد تردد المسلمون في خوض المعركة أمام هذا الحشد الهائل بالقياس إلى قوتهم وفكروا بأن يكتبوا للرسول ρ في هذا الأمر، إلا أن عبد الله بن رواحة شجعهم على القتال بقوله إنهم جاؤوا يطلبون إحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة، فاقتنعوا بكلامه وقرروا خوض المعركة عند موضع يدعى مؤتة.

وقد صورت المصادر المعركة بطريقة ملحمية مثيرة، إذ قاتل زيد بن حارثة ببسالة حتى قتل ثم قاتل جعفر بن أبي طالب كذلك حتى قتل، وقاتل عبد الله بن رواحة وهو ينشد الأشعار الحماسية حتى قتل، وأخيرا اصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم، وحاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه، حتى انصرف بالناس، وعاد بهم إلى المدينة، وكان عدد شهداء المسلمين في هذه المعركة اثني عشر شهيدا.

إن فشل حملة مؤتة لم يكن له تأثير كبير على قوة المسلمين أو سياستهم تجاه قبائل الشمال، لذا فقد قام الرسول ρ بتجهيز حملة أخرى مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل بقيادة عمرو بن العاص في جمادى الآخرة سنة ثمان للهجرة لمهاجمة بعض القبائل التي قاتلت ضد المسلمين في مؤتة في منطقة ذات السلاسل.

وهكذا استطاع الرسول ρ أن يشعر القبائل العربية في شمال شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام بوجود الدولة العربية الإسلامية وقوتها، مما سيكون له تأثيراته على مواقفهم وتحالفاتهم في المستقبل، وبخاصة بعد أن يحقق إنجازه الكبير في بسط سيادة الإسلام على مكة، قاعدة الوثنية في شبه الجزيرة العربية وزعيمة المعارضة للدعوة الإسلامية.

فتح مكة:

استغل المتشددون من مشركي مكة تجدد النزاع بين قبيلة بكر حليفة قريش وقبيلة خزاعة التي كانت قد دخلت في تحالف مع الرسول ρ فقدموا المعونة لقبيلة بكر بالسلاح والكراع والرجال بصورة سرية. وقد قتل من خزاعة في هذا النزاع عشرون رجلا، فأرسلوا وفدا من أربعين رجلا بزعامة عمرو بن سالم الخزاعي يخبرونه ما أصابهم ويستنصرونه، وقد تخوفت قريش من عواقب نقض العهد، وبعد نقاش الآراء المطروحة قرروا إنكار علمهم بما حصل، وأرسلوا أبا سفيان لمعالجة الموقف إلا أن جهوده لم تؤت ثمرة، وعاد إلى مكة وهو في شك مما سيفعله الرسول ρ لمواجهة الموقف.

وكان الرسول ρ يدرك تفكك الموقف الداخلي في مكة، وعدم وجود إرادة موحدة لدى أهلها للقتال، لذا فقد أخذ يعد العدة بصورة سرية لمفاجأة أهلها بحملة عسكرية لا قبل لهم بمواجهتها، وطلب من أصحابه التهيؤ للخروج، كما أرسل إلى حلفائه من القبائل الأخرى بتشكيل وحدات مقاتلة والالتحاق به، فتجمع له جيش مؤلف من عشرة آلاف مقاتل.

وقد نجح الرسول ρ بإحاطة وجهة حملته هذه بالغموض، وبقيت وجهة الرسول ρ محاطة بالغموض والسرية حتى فوجئت قريش بجيش الرسول ρ وقد عسكر قرب مكة في منطقة تدعى «مر الظهران»، وقد أوقد النيران ليلا فأوقدوا عشرة آلاف نار، فأجمعت قريش بعثة أبي سفيان يتحسب الأخبار، فخرج أبو سفيان ومعه حكيم بن حزام، وانضم إليهم في الطريق بديل بن ورقاء الخزاعي، فلما شاهدوا جيش المسلمين أصابتهم الدهشة والهلع، وأيقنوا ألا قبل لقريش بمواجهة هذه الجيش الكبير في ساحة المعركة.

حينها قابلهم العباس بن عبد المطلب وقد سبقهم في الالتحاق بالرسول ρ فقال لأبي سفيان: هذا رسول الله ρ في عشرة آلاف من المسلمين، فأسلم ثكلتك أمك وعشيرتك، ثم أقبل على حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء فقال: أسلما فإني جار لكم حتى تنتهوا إلى رسول الله ρ.

وهكذا استطاع العباس أن يوصل هؤلاء الزعماء الثلاثة إلى الرسول ρ حيث أعلنوا أمامه إسلامهم، وكان إسلام أبي سفيان ذا أهمية خاصة لأنه كان أبرز زعماء مكة في ذلك الوقت، وقد اتفق معه الرسول ρ

على أن يقنع أهل مكة بعدم مقاومة الجيش الإسلامي حين دخول مكة، وأن يخبرهم أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

وهكذا عاد أبو سفيان إلى مكة ليؤمن دخول الرسول ρ إليها بصورة سلمية، وقد أفلح في تحقيق هذا الهدف إلى حد كبير، فدخلت ألوية الجيش الإسلامي مكة بعد أن أوصاهم الرسول ρ بعدم مقاتلة إلا من يقاتلهم، فدخلوا ولم يلقوا أية مقاومة، ما عدا خالد بن الوليد الذي وجد جمعا من قريش وأحابيشها قد جمعوا له، فيهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، فمنعوه الدخول، وشهروا السلاح، ورموا بالنبل، وقالوا: لا تدخلها عنوة أبدا! فصاح خالد بن الوليد في أصحابه وقاتلهم، فقتل منهم أربعة وعشرين رجلا من قريش، وأربعة من هذيل، وانهزموا أقبح الانهزام. وقيل إن عدد من قتل في هذه المواجهة كان أقل من ذلك، وأصيب من المشركين ناس قريب من اثني عشر رجلا، أو ثلاثة عشر رجلا، ثم انهزموا.

لقد كان خروج رسول الله ρ على رأس جيشه المتجه إلى مكة في العاشر من رمضان سنة ٨هـ/ ٦٣٠م، ودخلها في ٢٠ رمضان من السنة نفسها، ومكث فيها خمسة عشر يوما، قام خلالها بتنظيم أوضاع مكة بما ينسجم مع مبادئ الإسلام وقيمه.

ولم يدخل الرسول ρ مكة مزهوا مفتخرا بالنصر العظيم الذي حققه كما يفعل قادة الجيوش عادة، وإنما دخلها مطئطئ الرأس تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، ورفض أن ينزل في أحد بيوت مكة، وأمر أن تضرب له قبة من أدم وهي بمثابة خيمة من جلد. وبعد أن أخذ استراحة قصيرة واغتسل، توجه ρ إلى الكعبة ومعه المسلمون فاستلم الركن، وكبر، فكبر المسلمون لتكبيره، فرجعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيرا، ثم طاف رسول الله ρ بالبيت على راحلته آخذ بزمامها محمد بن مسلمة، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما مرصصا بالرصاص، وكان هبل أعظمها، وهو وجاه الكعبة على بابها، وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون الذبائح، فجعل رسول الله ρ كلما مر بصنم منها يشير بقضيب في يده ويقول: {جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}، فيقع الصنم لوجهه.

وبعد أن طاف الرسول ρ بالكعبة سبعا، بعث إلى عثمان بن طلحة وكان لديه مفتاح الكعبة وحجابتها، فأمره أن يتقدم فيفتح البيت، ولا يدع فيه صورة إلا محاها، ولا تمثالا، فدخل فصلى فيه ركعتين، وخرج وفي يده مفتاح البيت فأعاده إلى عثمان بن طلحة، وكان العباس قد طلب من الرسول ρ أن يجمع له السقاية والحجابة، فرفض طلبه، وأقر الوظائف المكية بيد أصحابها دون تغيير.

وهكذا فقد سلك الرسول ρ مع أهل مكة سياسة تقوم على التسامح واحترام الحقوق، وإقرار السلام الدائم على ربوع المدينة، بل إن الرسول ρ قد قام بالعفو حتى عن أولئك النفر من الذين أهدر دمهم حين دخول جيشه مكة، بسبب مواقفهم المشينة منه أو من الدعوة الإسلامية حينما جاؤوه يعلنون ندمهم ورغبتهم في اعتناق الإسلام.

ويلاحظ أن الرسول ρ لم يسمح لأحد من جنده وفيهم الكثير من أبناء القبائل البدوية أن يحصلوا على غنائم من أهل مكة، وهو أمر قد جرت به العادة والعرف في حروب ذلك الزمان، فقام بتعويضهم من ذلك بأن اقترض من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم، ومن كل من عبد الله بن أبي بلتعة وحويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم، فكانت ثلاثين ومائة ألف فقسمها رسول الله ρ بين أصحابه من أهل الضعف.

وقبل أن يغادر الرسول ρ مكة فقد قام بتعيين وال عليها، لإدارة أمورها بالنيابة عنه، لأن مكة قد غدت جزءا من الدولة العربية الإسلامية، ويلاحظ أن الرسول ρ لم يعين لهذه المسؤولية أحد كبار أصحابه من المهاجرين أو الأنصار، بل اختار شخصا من بني أمية كان قد دخل في الإسلام بهد فتح مكة، وهو عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس، وهو الذي حج بالناس في تلك السنة، وقد جعل الرسول ρ له مرتبا لقاء عمله عن كل يوم درهما، ويبدو أن هذا المبلغ كان كافيا لسد احتياجاته في ذلك الوقت، فقد ذكر ابن هشام أنه لما استعمل النبي ρ عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهما، فقام فخطب الناس، فقال: أيها الناس، أجاع الله كبد من جاع على درهم، فقد رزقني رسول الله ρ درهما كل يوم، فليست بي حاجة إلى أحد. ويبدو أن تعيين الرسول ρ لعتاب واليا على مكة كان بدافع تأليف قلوب أهل مكة واجتذابهم للإسلام وبخاصة وأنه ينتمي إلى أسرة أمية القوية التي كانت بيدها الزعامة في مكة.

المصادر:

السيرة النبوية: ابن هشام: الجزء الرابع
السيرة النبوية: ابن كثير: الجزء الرابع
الروض الأنف: السهيلي: الجزء الرابع
الطبقات الكبرى: ابن سعد
السير والمغازي: ابن إسحاق
الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة: هاشم يحيى الملاح